



على الرغم من أن المؤرخين والبلدانيين العرب لم يجعلوا القيروان واحدة من الأمصار السبعة، ضمن قائمة هذه الأمصار الإسلامية، فإن العوامل التي ساعدت على اتخاذ هذه المدينة وتأسيسها وكذلك الأسس العمرانية التي استندت إليها تشابه إلى حد كبير تلك التي تمثلت في تأسيس كل من البصرة والكوفة والفسطاط، فالقيروان قد أسسها العرب الفاتحون في شمال أفريقيا وذلك لحاجتهم إلى معسكر أو مستقر لهم تتوافر فيه مستلزمات وشروط معينة.

وإن الحديث عن المرحلة التأسيسية لمدينة القيروان غير متكامل تماماً على عكس ما سبق ذكره عن الأمصار الإسلامية، ويرجع سبب هذا بالدرجة الأولى إلى ندرة المعلومات التاريخية المفصلة.

تسمية القيروان: اختلف اللغويون حول موضوع أصل تسمية القيروان، فهناك من يرى بأن الكلمة تعني جمعاً من الخيل، في حين يرى آخرون بأن المقصود من الكلمة معظم الكتبية أو معظم الجيش أو القافلة ويستشهدون بشعر لأمرئ القيس ورد فيه:

وغارة ذات قيروان كان أسرابها الرعال

وهناك رأي ثالث يرى بأن القيروان تعني القافلة، فيقول أبو عبيدة إن كل قافلة قيروان، وعلى الرغم من وضوح أصل الكلمة العربي في هذه التفسيرات اللغوية، فإن هناك من يجعل القيروان كلمة أعجمية معربة وأن أصلها يرجع إلى كلمة كاروان الفارسية ويقصد بها أيضاً القافلة^(١)، إلا أن ابن منظور دافع عن الأصل العربي للكلمة^(٢).

ويغلب أن عقبة واصحابه أرادوا بلفظ القيروان "مدينة" أو معسكر وهكذا نفهم من قول عقبة أرى لكم يا معشر المسلمين ان تتخذوا بها مدينة تكون عز للإسلام إلى آخر الدهر، ومن قوله حين انتهى من اختيار موضعها "هذه قيروانكم" أي ان قيروانهم هذه هي مدينتهم التي

(١) ياقوت الحموي: شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله البغدادي، معجم البلدان، ط٢، دار صادر، (بيروت: ١٩٧٧م)، ج٤، ص٤٢٠، الرازي: محمد بن أبي بكر، مختار الصحاح، ط٥، المكتبة العصرية، (بيروت: ١٩٩٩م)، ص٢٥٢، الفيروز ابادي: أبو طاهر مجد الدين محمد بن يعقوب الشيرازي، القاموس المحيط، ط٨، تح: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، مؤسسة الرسالة، (بيروت: ٢٠٠٥م)، ص٥٦٩.

(٢) لسان العرب، ط٣، دار صادر، (بيروت: ١٩٩٣م)، ج٥، ص١٧٥-١٧٦.

يجعلونها عسكريهم، ولهذا اللفظ معنى خاص في الروايات بأفريقيا، وقد اشار المالكي: ان معاوية بنى بناحية القيروان مساكن سماها قيروانا، أي مسكر للجند وذلك قبل اختطاط القيروان^(٣).

تأسيس مدينة القيروان:

كان تأسيس مدينة القيروان هدفاً دينياً جهادياً الغرض منه تأكيد الحكم الإسلامي على بلاد المغرب، والوقوف في وجه الأطماع البيزنطية التي كانت تتحين الفرصة للعودة إليها، وفي هذا السياق جاء مضمون الروايات التي وردت عند بعض المؤرخين كابن عذارى والمالكي متفقة في مضمونها حيث أن عقبة بن نافع قال لأصحابه عن أفريقية فيما يرويه ابن عذارى أنها بلاد عسيرة إذا دخلها إمام تحزم أهلها بالإسلام فإذا خرج منها رجعوا إلى الكفر، وقد فضل أن يتخذ بها مدينة يجعلها معسكراً أو قيرواناً تكون عزا للإسلام إلى آخر الدهر^(٤).

يبدو مما سبق أن تأسيس القيروان جاء في سياق جهادي الغرض منه طمأنة النفوس للمؤلفة قلوبهم الداخلين في الاسلام حديثاً.

وأن تاريخ القيروان يعود إلى عام (٥٠٠هـ/٦٧٠م)، عندما قام بإنشائها عقبة بن نافع وكان هدفه من هذا البناء ان يستقر به المسلمون، إذ كان يخشى أن رجوع المسلمون عن أهل إفريقية أن يعودوا إلى دينهم، إذ تعتبر القيروان من أقدم وأهم المدن الإسلامية، بل هي المدينة الإسلامية الأولى في منطقة المغرب ويعتبر إنشاء مدينة القيروان بداية تاريخ الحضارة العربية الإسلامية في المغرب، فلقد كانت مدينة القيروان تلعب دورين هامين في آن واحد، هما (الجهاد والدعوة إلى الاسلام)، فبينما كانت الجيوش تخرج منها للغزو والتوسعات، كان الفقهاء يخرجون منها لينتشروا بين البلاد يعلمون اللغة العربية وينشرون الدين الإسلامي، ولذلك يعتبر تأسيس المدينة انتصاراً كبيراً للمسلمين في بلاد المغرب، لاسيما بعد بناء المسجد الكبير، إذ كان المسلمون يدرسون

(٣) أبي بكر عبد الله بن محمد: رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية، مكتبة النهضة المصرية، (القاهرة: ١٩٥١م)، ص ٨.

(٤) ابن عذارى: أبو العباس أحمد بن محمد المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تح: ج. س. كولان وليفي بروفنسال، دار الثقافة، (بيروت: ١٩٨٣م)، ج ١، ص ١٩، المالكي: عبد الله بن محمد: رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونساکهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم، تح: بشير البكوش، ط ٢، دار الغرب الإسلامي، (بيروت: ١٩٩٤م)، ج ١، ص ٢٠.

هناك تفسير الآيات القرآنية والحديث النبوي الشريف، ويتذكرون بصفات رسول الله (ﷺ)، وهكذا بقيت القيروان في عز ومجد في عصر عقبة بن نافع^(٥).

ادرك عقبة من خلال إقامته الطويلة في بلاد المغرب ان اعمال الفتح والتوسع في شمال افريقية لا يمكن لها ان تظل معتمدة على قواعد بعيدة وصعبة الاتصال بالشام ومصر بل لابد لها من اقامة قاعدة قريبة بأفريقية تكون مركز للمؤن والاغذية ومكان يأويه هو وجنوده وحاشيته^(٦)، إذ يرج الاستعداد لهذا الهدف منذ سنة (٤٧هـ) حينما ولي (معاوية بن ابي سفيان) (عقبة بن نافع) على افريقية فافتتحها في عشرة آلاف من المسلمين ووضع السيف وأفنى من بها من النصاري^(٧).

إذ كان على عقبة أن يفكر بعد الانتصارات العسكرية التي حققها في موضع مستقر للجيش الذي يرافقه لأسباب منها الاعتصام او الاحتماء بالموضع خوفاً من أي فعل من قبل الروم أو البربر على حد سواء، وكذلك لإقامة صلاة الجمعة وصلاة الأعياد فيه، وبالفعل، فإنه استثمر الموضع الذي سبق أن أسسه (معاوية بن حديج السكوني) لكنه لم يعجب به فأخذ يفتش عن مكان آخر، المهم أن عقبة عرض الموضوع على جماعته واستشارهم في مسألة المكان الذي سيكون معسكراً ومستقراً لهم، فكانت الخيارات الموجودة أمام عقبة والمسلمين الفاتحين متمثلة باثنتين أولهما قيروان معاوية بن حديج وثانيهما مدينة قرطاجنة أو قرطاج وهي مدينة قديمة تمتعت بموقع استراتيجي متميز، وكانت تقع على مقربة يسيرة من تونس، إذ تعد المدينة مرفأ حيث تقع على ساحل البحر المتوسط، وقد استثمر العرب الرخام الموجود في قرطاجنة عند تأسيسهم القيروان^(٨)، فأما الخيار الأول، قيروان معاوية بن حديج، فإن عقبة وقف ضده لعدم رغبته بموقع المدينة، وأما بخصوص قرطاجنة فإن صفاتها وأهمية موقعها ربما قد احبها جماعة من المقاتلين العرب، إذ أشار المؤرخون إلى أن هؤلاء الراغبين في قرطاجنة اشترطوا أن يكون أهلها مرابطين فيها وقالوا : (نقربها من البحر ليتم الجهاد والرباط)^(٩). غير أن عقبة اعترض على هذا الرأي مشيراً إلى مسألة مهمة جداً إذ قال ما نصه (أخاف من ملك القسطنطينية) وفي

(٥) ابن عذاري: البيان المغرب، ج ١، ص ١١٣، الصلابي: علي محمد، الفتح الإسلامي في الشمال الأفريقي، مؤسسة اقرأ، (القاهرة: ٢٠٠٧م)، ص ١٢٥.

(٦) ابن عذاري المراكشي: البيان المغرب، ج ١، ص ٤٥.

(٧) زيتون: محمد، القيروان ودورها الحضارة الإسلامية، دار المنارة، (القاهرة: ١٩٨٨م)، ص ٧٢.

(٨) جوهر: حسن محمد، تونس، دار المعارف، (القاهرة: ١٩٦١م)، ص ٣٨.

(٩) الحميري: محمد بن عبد الله بن عبد المنعم: الروض المعطار في خبر الأقطار، تح: احسان عباس، (بيروت: ١٩٧٥م)، ص ٤٨٦.

رواية أخرى بأن جماعة من المقاتلين اعترضوا قائلين (نحن أصحاب إبل ولا حاجة لنا بمجاورة البحر، فتسطوا عليها الفرنج)^(١٠)، وأدلى ياقوت الحموي برواية ثالثة تدور حول نفس المحور، نكر أن عقبة قال لجماعته إنما اخترت هذا الموضع لبعده عن البحر لئلا تطرقها مراكب الروم فتهلكوا...^(١١).

ويبدو مما سبق أن رؤية عقبة والجيش المرافق له استناداً إلى ما أشار إليه المؤرخون كانت لهم رؤية واقعية كون العرب خلال تلك الفترة المبكرة لم يعتادوا بعد على ممارسة الحروب البحرية، فضلاً عن تلك افتقارهم إلى أسطول بحري قوي يقف بوجه الأسطول البيزنطي الذي كانت له السيطرة البحرية، لذلك فإن عقبة ومن رافقه وقفوا موقف معارض بالنسبة للخيار الثاني في اتخاذ مدينة قرطاجنة.

الأسباب التي دفعت عقبة بن نافع لتأسيس القيروان:

هناك العديد من الأسباب التي دفعت القائد (عقبة بن نافع) لتأسيس القيروان نذكر منها على وجه العموم لا الخصوص:-

١. تبليغ دعوة الله ثم الوسيلة إلى ذلك هي الدفاع عن هذه الدعوة، فتأسيس مدينة القيروان كان لهدف ديني ولهدف عسكري حربي.
٢. تكون عزا للإسلام وأهله، إذ كانت مركزاً حربياً ومدينة للمجاهدين وأسرهم وجامعة لتعليم اللغة ومبادئ الدين ولتكون قاعدة لنشر الإسلام فعم المغرب بأجزائه ثم عبر إلى الأندلس وإلى جزر البحر المتوسط ليصل إلى أوروبا، وامتد جنوباً ليصل إلى أعماق وغرب القارة الأفريقية^(١٢).
٣. أشار عقبة قائلًا: (إن أفريقية إذا دخلها أمام أجابوه إلى الإسلام، فإذا خرج منها، رجع من كان أجاب منهم لدين الله إلى الكفر، فأرى لكم يا معشر المسلمين أن تتخذوا بها مدينة تكون عزا للإسلام إلى آخر الدهر)^(١٣).
٤. تأمين إمدادات الجيش وحماية وسائل المواصلات وهي الإبل^(١٤).

(١٠) الناصري: أحمد بن خالد الناصري الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تح: جعفر ومحمد الناصري، ج ١، ص ٧٨.

(١١) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٢١.

(١٢) طقوش: محمد سهيل، تاريخ الدولة الأموية، دار النفائس، (بيروت: ٢٠١٠م)، ص ٧٢.

(١٣) ابن عذاري: البيان المغرب، ج ١، ص ١٩.

لقد استغرق بناء مدينة القيروان كما اشار المؤرخون خمس سنوات منذ عام ٥٠ - ٥٥هـ / ٦٧٠ - ٦٧٤م)، وقد اختلف المؤرخون في تقدير مساحة القيروان فمنهم من قال (٥٨٠٠م^٢)، ومنهم من قال (٧٠٠٠م^٢)... وقد حل هذه الاشكالية الدكتور سعد زغلول بقوله: أن المساحة الاولى هي المدينة العسكرية حيث المسجد الجامع ودار الامارة ودور العسكر، بينما المساحة الثانية فهي اضافة لما سبق مساكن القبائل والمساجد الخاصة والمرافق العامة الاخرى.

الجانب العمراني:

شهدت القيروان بعد تأسيسها تطورات عمرانية واجتماعية سريعة خاصة عندما اتسع نطاق هذه الجبهة عسكريا فصارت القبائل العربية تتوافد على المنطقة مما أدى إلى زيادة حجمها السكاني، إذ عرفت القيروان منذ تأسيسها إلى غاية منتصف القرن (الخامس الهجري/ الحادي عشر ميلادي) حركة علمية نشيطة فقد استقطبت العلماء من بلاد المشرق والمغرب على حد سواء فمنهم من جاءها ضمن الجيوش الاسلامية واستقر بها أو عاد إلى المشرق وكان معظم هؤلاء من الصحابة والتابعين، ومنهم من وفد إليها في البعثة العلمية التي أرسلها (عمر بن عبد العزيز) إلى إفريقية والذين قدرت بعض المصادر التاريخية عددهم بعشرة، ومنهم من ولدوا وترعرعوا فيها وتلقوا علومهم عن علمائها، ومنهم من وفدوا إليها من مدن إفريقية والمغرب والأندلس مع بداية القرن الثاني الهجري إما بغرض نشر العلم أو الاستزادة فيه.

وكان لا بد من توفير المؤسسات العلمية بالقدر الكافي لمسايرة هذا الغرض الذي جاء من أجله هذا الكم الهائل من العلماء، وقد شهدت القيروان في هذه الفترة إنشاء العديد من المؤسسات العلمية بالقدر الذي يستجيب لمتطلبات الحياة العلمية والثقافية بها وتنوعت بين مساجد وكتاتيب ومكتبات.

١. المساجد:

ليست هناك معلومات وافية عن الأسس الهندسية والعمرانية التي استند إليها توزيع خطط القيروان ووحداتها العمرانية على عكس ما نملك من معلومات بشأن المدن الإسلامية الأخرى، إذ أن كل ما لدينا من معلومات تشير إلى أن (عقبة بن نافع) بعد اختطاطه المسجد الجامع ودار الإمارة أقطع الناس المواضع لاتخاذ مساكنهم، فعمر هؤلاء المدينة وامتدت حركة البناء والعمران

(١٤) القرشاي: رمضان والسوسني: ابو بكر صالح، مدينة القيروان وديورها الحضاري في نشر الاسلام في بلاد المغرب والأندلس، بحث منشور في مجلة العلوم والدراسات الانسانية، (جامعة بنغازي: ٢٠١٤م)، ٦٨ع، ٢٠٢١م، ص ٦.